« مع القومية العربية »

لا يكون نقد الكتاب بالعرض المسلسل لمحتواه ، بل من الواجب تحويله الى قضية ذات مردود شعبي . فكل معالجة قومية للوجود العربي لها رسالة مجتمعية ، ومهمة النقد هنا انما هي « فضح » نقط الانحراف والالتواء ، واتخاذ موقف ما نزم مسؤول .

ان صدور كتاب ذي وحدة موضوعية يبحث في « القومية العربية »(*) انما هو تلبية لضرورة قومية تشعر جميعا بخطرها في هذه المرحلة . وكم كنا نتمنى ان يحمل الكتاب تسمية صريحة للجماعة التي اصدرته ، وان يدل على اسم الذي كتبه من تلك الجماعة ، لان هذا ما يوجبه الشعب على كل من يطرح وجوده على بساط البحث حتى يتوفر الالتزام كما يجب ان يكون .

والمعروف من مجمل شعارات الكتاب ان مصدريه يتسمون بـ «القوميين العرب » . وقد عرفنا هؤلاء ـ حتى الان ـ دون تكتل سياسي منظم . اما وقد جاء الكتاب موضحا لمفاهيم لهم كانت مبثوثة في الصحف ، ومستكملا لمفاهيم تبنوها من جديد ، فقد اصبح من الضروري العرض المرحب لبعض هذه الافكار :

واول فصل يطالع القارىء بعد المقدمة هو فصل عن القومية كوجود اجتماعي تاريخي وقد حددت فيه المفاهيم التالية مما رأيناه جديرا بالدعم :

١) ـ القومية قديمة قدم التجمع البشري ، ولم تنشأ في القرن الثامن عشر او التاسع عشر انما القومية هي الوجود الاجتماعي التاريخي الناتج عن تفاعل جميع الروابط بين ابناء الامة الواحدة تفاعلا عميقا مترابطا .

٢) ـ وعليه ، فالقومية ليست «عاطفة» او «تيارا» خلقته « الطبقات البرجوازية » لخلق ادبولوجية للحفاظ على استغلال الشعوب وتضليلها، كما يدعي اصحاب المادية التاريخية .

٣) ـ القومية بوجهها الاصيل انسانية لا عنصرية ولا انعزالية ، بل هي وحدة اجتماعية تاريخية تأخذ وتعطي وتزيد الانسانية عمقا واصالة . اذ ليس للقومية وجه داخلي ووجه خارجي . فالقومية اللاانسانية داخل اطار الامة لا يمكن ان تكون انسانية تجاه الامم الاخرى. وهكذا جاءت القومية الغرب اوروبية لاانسانية داخليا وخارجيا اذ استطاعت الفئات المستثمرة ان تستغلها لتزيد من سيطرتها بعد الثورة الصناعية .

يتبع هذا الفصل سبعة فصول متسلسلة عن القومية العربية . ونعرض هنا لاهم ما ورد فيها من حين :

١) نشأت القومية العربية كما نشأت اية قومية اخرى (لقد وجدت القومية العربية بحالة بذور تكوينية مع بدء وجود اول جماعة بشرية ، عرفت فيما بعد بانها عربية في لغتها وتاريخها وارضها وعاداتها وتقاليدها وشخصيتها العامة ، وقد كان ذلك في جزيرة العرب منذ الاف من السنين لم يستطع التاريخ تحديدها للان بشكل نهائي) .

٢) منذ الاف السنين انتقلت موجات عربية متتابعة من جزيرة العرب الى الهلال الخصيب ووادي النيل . هذه الموجات ، اورثها انعزالها الجزئي عن البيئة الاصلية للشخصية العربية قيما حضارية تختلف عن قيمها العربية الاصلية . اما الموجة العربية الاسلامية فقد جاءت لتصهر الوجود العربي في بوتقة واحدة ولتعطي الامة العربية امتدادها الارضي الحالي ـ الوطن العربي من الخليج الى الاطلسي . وعليه (كانت امتدادا منظما هادفا خرج يستبدل قيما ومقاييس وعادات ونظما باخرى ، كانت فيضا تحركه دوافع روحية عميقة ، وهكذا كان تأثير الموجة العربية التي جاءت مع الاسلام تأثيرا قوميا قام على تفاعل عميق حي مع مختلف مظاهر حياة الاقوام التي تسكن الوطن العربي)

٣) القومية العربية ليست الدين الاسلامي ولا تتعارض معه : (على هذا الاساس ، تختلف القومية عن الدين ، على اساس ان القومية وجود ، والدين رسالة أتت تصلح بعض جوانب هذا الوجود) ، وعلى هذا الاساس ايضا ، (ليس هناك اي تعارض بين القومية والدين ، ولكن هناك تعارضا حين يتحول الدين من مجموعة فضائل يتصل الانسان من خلالها بالمثل الاعلى ، الى حركات سياسية تنفي القومية كوجود اجتماعي تاريخي) .

٤) القومية العربية كوجود غير الماركسية العالمية كفلسفة : (فنحن نستطيع ان نقول : نحن اشتراكيون او غير اشتراكيين ، نحن ديمقراطيون او غير ديموقراطيين ، ولكننا لا نستطيع ان نقول نحن قوميون او غير قوميين لان القومية ليست فكرة او فلسفة بل هي وجود اجتماعي تاريخي) . اما الماركسية كفلسفة فتبقى دوما خاضعة للنقاش والنقد والنقض .

والتفسير القومي للتاريخ يمثل النزوع الانساني الكلي بينما التفسير المادي للتاريخ يفسر الكل الانساني بالعامل الجزئي المادي الواحد (التفسير القومي يتميز بأنه تفسير متكامل ربط بين جميع مظاهر الحياة الانسانية، ويفسر مظاهر الوجود الانساني بالعوامل المتعددة التي تكون وتؤثر في هذا الوجود . اما التفسير الماركسي فهو تفسير جزئي يقوم على عامل واحد وجانب واحد فقط) .

٥) القومية العربية وجود وليست شعورا او فكرة او عقيدة او فلسفة. هذا الوجود القومي عند تبلوره او عند التعبير عنه يأخذ مراتب ودرجات مختلفة ، فيبدأ شعورا ليصبح فكرة فعقيدة فينتقل الى فلسفة كلية تجسدها نفوس الافراد حسب المدلولات اللغوية لهذه النعوت .

ونحن مع الكتاب عندما يصل الى اننا كقومية عربية نعاني ازمة وجود فنحن كأمة عربية بحاجة الى اساس للانطلاق لاعادة خلق هذا الوجود . هذا الاساس لا يجوز مطلقا الا ان ينبثق من صميم الوجود العربي ليعطي

(*) « مع القومية العربية » كتاب من اصدار اتحاد بعثات الكويت ، القاهرة ، ١٨٢ ص

ولادة اصيلة صادقة مرتبطة ترابطا « رحميا » مع هذا الوجود . ان النضال العربي ، على هذا الاساس ، يستهدف خلق المجتمع العربي الواحد من الخليج الى المحيط : مجتمع متحرر من الاستعمار واذنابه ، مستعيد للاوطان المغتصبة ، متحرر من الخوف والفاقة والجهل والمرض بنظام اشتراكي ديموقراطي سليم ... وبهذا يستطيع المجتمع العربي المنشود ان يكون التربة الخصبة للامة العربية كي تبدع وتخلق وتؤدي رسالتها مع الامم الاخرى لخير الانسانية واثرائها ... هذه هي رسالة النضال العربي .

اننا مع الكتاب في نقطة البدء وفي اهداف النضال .

غير اننا نختلف في الطريق ، اثناء النضال ، في اسلوبه ومراحله ، في استراتيجيته وتكتيكه .

يقول القوميون العرب ان الخلاف اذن بسيط ونقول انه ليس بالبسيط ابدا . ان الاصعب من هذا الاتفاق البدهي في نقطة الانطلاق وفي الهدف ـ اذ انه ليس من الصعب تحديد اهداف النضال ـ الاصعب هو تفهم تجربة النضال الواقعية الصادقة الاصيلة باسلوبها ومراحلها ، باستراتيجيتها وتكتيكها ، وهذا لن يتوفر الا بانبثاقها انبثاقا اصيلا صادقا من نقطة الانطلاق ـ من ازمة الوجود العربي .

ان تراث الانسانية الحضاري الاصيل هو مجموعة القيم والمثل والافكار التي اكتشفها بنو البشر في كافة مراحل التطور التاريخي . هذه القيم والمثل والافكار لم تكن في مدى التاريخ صورا ذهنية فكرية فحسب ، انما تجسدت كلها في اعمال نقلتها من ذهن الانسانية المتشكك دوما الى الواقع الحي . ان الفكرة لا تأخذ شرعيتها واصالتها الا بتجسيدها واقعا انسانيا . فالصورة الذهنية للمثل والافكار والقيم هي مرتبة اولية ولا تنتقل الى المرتبة الانسانية الخلاقة ، مرتبة النضال والفعل والتغيير والتحرير الا بتحويلها لمادة انسانية حضارية تحمل ملامح الحرية الانسانية : ـ الا بانسنة المادة .

وعليه ، فمحاكمتنا لاسلوب النضال ومراحله ، لاستراتيجيته وتكتيكه ، كما اوردها القوميون العرب في كتابهم ... ستكون بالنزول في كل ذلك ، من مجال الذهن ، مجال الفكرة والصورة ... الى مجال النسيج الحي ، مجال المادة والتجسيد والواقع .

قلنا اننا كأمة نعاني ازمة وجود : ازمة الوجود الشاملة العامة لابناء الشعب العربي جميعا . دوامة ازمة الوجود هذه ، لا يكون موقف الانسان ـ موقف الحرية منها ـ الا عند البحث عن الانسان العربي الفرد . الانسان العربي الفرد هو وحدة الوجود العربي الحية التي تقاسي ازمة الوجود . الوجود العربي هذه ، تتفرد وتتفرط ، الى وحدات بشرية حية تعاني قساوة وفظاعة وعنف الازمة . من الانسان العربي نقطة الانطلاق ، فالانسان العربي هو القيمة الاولى التي نريد بنضالنا ان نبرر وجودها ـ ان نخلق لها معنى حياتها . المجتمع العربي المنشود هو اللحم والعظم والدم الذي يخلق دفقة الحياة في انساننا العربي . ازمة وجود انساننا العربي هي فقدانه لاصالة شخصيته . فخلقنا الجديد للانسان العربي لا يكون الا باعطائه كافة ابعاده الانسانية ـ ببنائه بناء يشمل كافة مظاهر حياة الانسان . والا فنكون قد شطرنا انسانيته ولم نكن انسانيين في معالجته . فازمة وجود تعني ازمة شمول فلا انفصال وانفصام في مجالات النضال الانساني . وهكذا فازمة الوجود لا توقيف ولا تأجيل فيها . الانسان العربي ليس مختارا في هذا المجال ، انه قدر يستلزم ويتطلب كل مقومات وجوده . حريته هنا تأخذ عنف القدر لتصبح اعنف ما تكون الحرية . فحريات الانسان العربي الفكرية والاقتصادية والاجتماعية والسياسية هي ابعاد ازمة وجوده . هذه الابعاد متفاعلة تفاعلا وجوديا حيا ديناميكيا بحيث لا يعرف لها اطراف ولا حدود ولا يعرف اين يكمن السبب وتكمن النتيجة وكيف يؤدي السبب للنتيجة تأدية ميكانيكية فيزياوية تقليدية . الانسان العربي في دوامة ، في ارجوحة ، الازمة الصاعقة . ولا يعني هذا ان لا نلجأ للدراسة العلمية التفصيلية المخططة لتفكيك اطراف عقدة الازمة التي تخنقه . انما لا يكون ذلك الا بالحفاظ على براءة واصالة التجربة كي لا تفقد صدقها وغناها . هذه التجربة تعمل وتفهم وتتعقد فتغني وتنطلق من « خصوصية خصوصية » كل تجربة دون ان تضع حدودا سافية مصطنعة زائفة وتنطلق منها ضاربة بالعلمية عرض الحائط ظانة ان هذه هي العلمية . اننا نقع في انعزالية لاواقعية عندما نقول ان المرحلة الاولى سياسية والمرحلة الثانية اجتماعية واقتصادية ـ انعزالية لاواقعية تجاه ازمة وجود الانسان العربي المتلاحقة المتشابكة الاطراف . اننا نقع في تجريدية بعيدة عن توتر الازمة المجسد . اننا نقع اخيرا في خيالية هوائية عندما نضع الاطار العام للمجتمع المقبل ونناضل للتحقيق دون ان نعي وعيا تاما ان خلق الاطار لا يكون الا نتيجة حتمية ضمنية للسير الحثيث بمحتوى الواقع العربي واعطاء هذا المحتوى دوما ـ خلال التجربة ـ ملامح وصفات النضال العربي .

نخرج من ثنايا البحث بخطل فكري ناشئ عن عدم التصور الذهني الكامل لازمة وجود الانسان العربي ، وبالتالي عدم معالجته العلاج الانساني الكامل وعدم الايمان به كحرية وكقيمة اولى للوجود . فمحور بؤرة الزلل لا انسانية في المعالجة ، تؤدي الى تجزئة تخرج عن الوحدوية ـ نقطة انطلاق اصحاب الكتاب عندما يكون البحث عن الوحدة العربية . محور الزلل هذا يعزل ابعاد الانسان العربي ومجالاته الانسانية في علب منفصلة عن بعضها ... ويؤدي هذا الى ميكانيكية غير حية في فهم العلائق بين مظاهر النشاط ، يؤدي الى انعزالية عن التجربة الحية في تحديد المراحل .. يؤدي ايضا الى تجريدية في تجاهل منبع الازمة ـ الانسان العربي ـ ... يؤدي اخيرا الى عمومية في الحكم على مراحل النضال تنسى خصوصية كل اصغر معركة من معارك النضال ويؤدي كل هذا الى اللاعلمية .

انا الانسان العربي الذي يعاني ازمة وجوده ، اريد ان اجد معنى لوجودي . انا مضطر للنضال اليومي لخلق كافة مجالات النشاط الانساني التي استطيع منها وبها وعن طريقها ان اخلق وابدع واقدم اسطع مثل الواحب نحو امتي ونحو الانسانية . ان كان كل نضالي من اجل حريتي في القول وفي الرأي ، فانا عبد للسعي للحصول على الرغيف ولو ملكت حرية القول . ان كان كل نضالي من اجل الرغيف ، اكون قد شوهت صورة الانسان المشرقة ... ان نضالي كامل سياسي واقتصادي وفكري . ان نضالي غير مجد ان كان مجرد حماس ضد التجزئة والاستعمار واسرائيل ، دون ان اتسلح ـ بصفتي وحدة النضال .. بمستوى الحياة الذي يمكنني من النضال الحقيقي . ان نضالي من اجل الوطن العربي الواحد المتحرر نضال في سبيل مثل اعلى ، وعلامة الحب بيني وبين المثل الاعلى هي ان المثل يخلق حياتي الجديد وليس مجرد مثل هوائي لا علاقة ارضية بيني وبينه .

ان الانحرافات الفكرية اللاعملية التي خرجنا بها بحاجة لي ادعم ان مضمون هذه الانحرافات بحاجة الى شواهد من الكتاب اكي نستند الى اثبات .

فالاساس الذي يجب ان ينبع منه النضال العربي هو (تجسيد مستلزمات الوجود القومي العربي بما يتلاءم وطبيعة هذا الوجود ، وبما يتلاءم والتقدم الحضاري العام ، وبما يتلاءم والتجارب والمفاهيم الجديدة التي اكتسبتها الامة تجسيدا يحقق انسانية المجموع القومي ويطلق امكانياته وطاقاته .) ان نقطة الانطلاق هذه تنبثق انبثاقا حيويا طبيعيا من ازمة الوجود العربي . وعندما ننتقل الى تحديد المجتمع المنشود يقول الكتاب (هذا المجتمع هو مجتمع يحقق العدالة السياسية عن طريق ديموقراطي سليم ، ويحقق العدالة الاجتماعية الخاصة عن طريق المفاهيم الجديدة والنظم الجديدة والبرامج الجديدة التي ستطبع مؤسساته الاجتماعية). هذا هو مجتمع يوفر جو الابداع والخلق للامة كي تؤدي رسالتها مع الامم الاخرى لخير الانسانية . نحن نتفق ـ كما قلنا اول الدراسة ـ في : من اين نبدأ والى اين نسير ، فاين الاختلاف ؟

قلنا ان الخلاف انحصر في اسلوب النضال ومراحله ، في استراتيجيته وتكتيكه . ان تخطيط النضال يجب ان يكون على مرحلتين : المرحلة الاولى من الاهداف العربية هي (القضاء على التجزئة بالوحدة العربية، والقضاء على الاستعمار بالتحرر ، والقضاء على اسرائيل بالثار) والمرحلة الثانية هي (بناء المضمون الاشتراكي الديموقراطي الاجتماعي العام للمجتمع القومي العربي) .

في هذا يكمن الخلاف . فسنبين ان الزيف يخالط هذا الموقف ، ويخالط هذا التقسيم المفتعل ، بشواهد تتسم بثنائية الموقف .. ورغم الثنائية نجد ان الموقف كما ينتهي اليه الكتاب هو انه « لا بد من هذا التقسيم للمراحل ».

سنعرض لما استخلصناه حتى الان . نحن امة تعاني ازمة وجود قومي . هذه الازمة تتجلى بتشويه شخصية الانسان العربي . وان اعادة الشخصية الاصيلة اليه لا يكون الا ببناء يشمل كافة المجالات الحياتية للحياة البشرية . وعليه ، لا نستطيع ان نتجاهل نضال هذا الانسان العربي نضالا اجتماعيا واقتصاديا منذ الان ، لاننا نقع في تناقض ساذج بسيط هو : ما نوع الشخصية العربية التي ستناضل من اجل التحرر السياسي؟ اهي الشخصية المشوهة المجدبة التي تراها في كل زاوية من زوايا الوطن ؟ ثم ، هل قيمة النضال الاولى في كونه يشمل اعدادا فارغة جوفاء لا مقومات اجتماعية واقتصادية لها كما حصل اثناء نكبة فلسطين ؟ ام ان قوة الدول والامم تقاس بامكانية الافراد المجتمعية ؟ فالتناقض الواضح اذن اننا نريد تحررا سياسيا دون ان نملك اداة هذا التحرر المناضلة ... وعندها نبقى في الحلقة المفرغة التي درنا فيها اثناء قرن او يزيد ـ الا يتسم هذا الموقف بالخيالية ؟ الا يتسم هذا الموقف بالتجريدية ما دام افتقد التجسيد الحي ؟ الا يتسم هذا الموقف بالانعزالية في التجربة ما دمنا سنتجاهل في هذه المرحلة ان التجربة العالمية افادت ان : لا عدل دون اشتراكية ، وهكذا نقعد عن مسايرة التطور العالمي ؟ الا يعني هذا الموقف اللاوحدية لانه يجزيء ازمة المجتمع العربي التي هي ازمة وجود كلي شامل ؟ الا يدل اكتفاؤنا بالنضال السياسي اننا وضعنا الحل العام للمشكلة بالوحدة والتحرر والثار ونسينا خصوصية الازمة حيث مكانها الفرد العربي ؟ واخيرا الا نقع في اللاعلمية عندما نريد الوصول الى هذه الاهداف دون اعداد الاداة الناجعة ـ المناضلين المرتفعين لمستوى الاهداف ؟

يقول الكتاب في ص ١٦٢ (ولكننا اذا نظرنا نظرة علمية الى الواقع العربي، نجد انه بالرغم من ان مشاكلنا السياسية والاقتصادية والاجتماعية لا تنفصل عن بعضها البعض ، بل هي جوانب مترابطة تؤثر كل منها في الاخرى ، وتؤثر جميعها في الحياة العربية ، الا ان المشكلة السياسية هي اخطر هذه المشاكل واحدها واكثرها الحاحا ، وهي المشكلة التي تقف امامنا وتحول بيننا وبين حل المشاكل الاقتصادية والاجتماعية ، اذن لا بد من التخلص من المشكلة السياسية اولا لنتخلص من المشاكل الاخرى ثانيا) .

فما دمنا قد وعينا ان ابعاد الازمة السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية ابعاد متفاعلة متشابكة متبادلة الفعل والانفعال ، وانها نسيج حي متحرك لا انفصام للحمته وسداه ، فكيف يجوز لنا ان نعود فنعطي الجانب السياسي الفعالية الاولى ونربطه ربطا ميكانيكيا جافا شكليا كما نربط السبب بالنتيجة الربط الفيزياوي التقليدي ، بحيث يؤدي هذا الربط الى كون مظاهر الوجود الانساني عبارة عن حلقات تؤدي الواحدة منها الى الاخرى تأدية رتيبة متسلسلة ؟ كيف نرجع ونقول ان حل المشكلة السياسية يؤدي الى حل المشاكل الاقتصادية والاجتماعية ؟. الا يجب ان يشمل نضالنا كافة هذه الابعاد لان الاستعباد السياسي والاستعباد الاقتصادي قضية واحدة ؟

ويعود الكتاب فيقول في صفحة ١٦٥ (فلنتخلص من الفقر والظلم الاقتصادي والاجتماعي عامة لا بد من القضاء على الاستغلال بالاتجاه نحو الاشتراكية .. ولكن الاستعمار من جهة ، واسرائيل من جهة ثانية والفئات الحاكمة والمنحرفة والنفعية من جهة ثالثة ، سيقاومون هذا الاتجاه مقاومة عنيفة جادة . لذلك لا بد من التخلص منهم قبل الاتجاه نحو اي نضال اقتصادي واجتماعي ، اي لا بد من التخلص من المشكلة السياسية لنتجه نحو المشكلة الاقتصادية ، وهكذا يصبح التحرر السياسي هو طريق التحرر الاقتصادي) .

في هذه الفقرة ، تقولون ان لا بد من القضاء على الاستغلال بالاتجاه

في السوق

موتى بلا قبور

البغي الفاضلة

مسرحيتان

ترجمة الدكتور سهيل ادريس والمحامي جلال مطرجي

في سلسلة : روائع المسرح العالمي

منشورات دار الآداب

ص. ب. ٤١٢٣

نحو الاشتراكية ، ولكن الاستعمار واعوانه واسرائيل يقفون حجر عثرة ، فلنتخلص منهم اولا ... ولكنكم تنسون ان اداة النضال ـ الفرد العربي ـ لا يرتفع الى مستوى القضاء على اعدائه هؤلاء الا بتسليحه بمقومات وجوده الاقتصادية والاجتماعية ، فكأنكم تريدون الهدف دون اعداد الاداة.

فواضح من الكتاب اذن انكم تحسبون حساب المشكلة الاقتصادية ومع ذلك تتجاهلونها ، فقد جاء في صفحة ٥٨ (ان الامة العربية كلها تحتاج الى بناء اقتصادها القومي المتفكك بناء يتجه بها نحو التصنيع الثقيل والاكتفاء الذاتي وتوفير الوسط الذي تتوفر فيه مقومات الاقتصاد الاشتراكي)

هل تسمح الاقطاعية العربية الان بالتصنيع الثقيل الذي يتناقض مع صالحها ؟

هل يمكن خلق الاكتفاء الذاتي دون توجيه الدولة للاقتصاد مما يتناقض مع مصلحة الاقطاعية والرأسمالية العربيتين ؟

وبعد ... كيف يمكن توفير الوسط الذي تتوفر فيه مقومات الاقتصاد الاشتراكي دون النضال في سبيل الاشتراكية بجعل عقول الافراد مقتنعة بضرورتها ، ودون السير باقتصاد البلاد باصلاحات مرحلية حثيثة مستمرة تحمل مقومات وروح النظام الاشتراكي ؟

الا يتعارض ذلك ايضا مع مصلحة المستثمرين ـ العرب ـ في الوطن العربي ؟ ورغم هذا الايمان بضرورة التطوير الاقتصادي بما يخلق مقومات الاقتصاد الاشتراكي ، تأتي فقرة اخرى في صفحة ١٦٧ فتقول (ولا يجوز للنضال في هذه المرحلة ان يتحول الى نضال اقتصادي يدور في جدران المجتمع ، او يضطر ان يحارب على جبهتين داخلية وخارجية) .

الا يعني النص الاول اننا نريد نضالا اقتصاديا والثاني اننا لا نريد ذلك ؟ ثم ، تقولون ان المرحلة الاولى تشمل النضال ضد الاستعمار وعملائه في الوطن ... فكيف تقولون باستحالة الحرب على جبهتين ، وهما في الحقيقة جبهة واحدة امام الشعب العربي ـ جبهة الاستعمار وعملائه في الوطن ؟

يعود الكتاب ليخفف من حدة النص الثاني ، وهذا لا يعني بالطبع عدم القيام باصلاحات اقتصادية على الاطلاق . ابدا : ولكن المقصود ان لا يصبح الطابع العام للنضال العربي في هذه الفترة هو طابع نضال اقتصادي يعتقد ان مشكلته الرئيسية مع صاحب العمل بينما مشكلته الرئيسية مع الاستعمار)

انه كلام من لا يريد ان يتخذ موقفا ... اذ هل المطالبة بالاصلاحات العادية تخلق مقومات وروح النظام الاشتراكي دون ان يعرف المناضلون انهم يناضلون من اجل الاشتراكية كنظام وحيد يكفل العدالة الاجتماعية؟ وكيف نعود لفصل صاحب العمل عن الاستعمار اذا لم يتخذ صاحب العمل هذا موقفا ينسجم مع مصلحة الوجود القومي ؟

وعند التحدث عن المرحلتين الاولى والثانية من مراحل النضال (المرحلة الاولى هي مرحلة نضال سياسي يستهدف تحرر الامة العربية واقامة الاطار الخارجي السليم للمجتمع العربي الموحد ، والمرحلة الثانية هي مرحلة بناء محتوى المجتمع العربي ، اي بناء المضمون الاشتراكي الديموقراطي للمجتمع القومي العربي الموحد) .

ان هذا النص يدل على خيالية ولاعلمية في التصور الاجتماعي لتحقيق اهداف النضال العربي . ان اقامة الاطار الخارجي السليم للمجتمع العربي الموحد لا تكون الا بتغيير المحتوى الداخلي ، فنحن لا نستطيع ان نبني المجتمع العربي الموحد المتحرر الاشتراكي بمجرد تصور هذا المجتمع ... وانما بالنزول الى الواقع واعطائه ملامح نضالنا وتغيير محتواه تغييرا مسابقا مستمرا ليؤدي هذا التغير البسيط المستمر الى تغير كلي في نوعية المجتمع تحوطه اطر غير الاطر التي تحد المجتمع الحالي .. فلكي نعطي اللون الاحمر لوعاء زجاجي لا يكون ذلك الا بملئه بالسائل الاحمر حتى نستطيع رؤية شكله الخارجي ـ الاحمر ـ عن بعد .

ويتحدث الفصل الاخير من الكتاب عن المرحلة الثانية ... مرحلة المجتمع القومي العربي ذي النظام الاشتراكي . ورغم انه ورد في صفحة ١٧١ (ان النضال السياسي ليس هدفا بحد ذاته الا بمقدار ما يضع الامة العربية في وسط تجربة نضالية تصل من خلالها الى وعي معنى المرحلة الثانية ، والا بمقدار ما يعيد للامة وضعها الطبيعي الذي فيه وحده يمكن بناء المضمون الاشتراكي الديمقراطي الاجتماعي للامة) ... رغم هذا النص الذي يدعونا لطرح السؤال السابق وهو ... كيف يمكن وعي معنى المرحلة الثانية وايجاد الوضع الطبيعي الذي فيه وحده يمكن بناء المضمون الاشتراكي ، دون ان يكون نضالنا منذ الان لغرس الايمان بالاشتراكية في النفوس ولتطوير مجتمعنا بتحميله روح ومقومات النظام الاشتراكي ؟... رغم هذا النص يعود الكتاب لاعتبار الاشتراكية مرحلة منفصلة تأتي بعد التحرر السياسي .

ان نقدنا السابق يزداد تدعيما اذا ما عرضنا للتجارب التاريخية التي مرت وتمر بها المجتمعات العالمية ...

لقد اشار الكتاب اشارة عابرة الى ان المجتمعات الانسانية في العالم تحررت خارجيا اولا ثم ابتدأت تبني نظامها الذي تريد في الداخل . ورغم ان الشعوب الاخرى في روسيا والصين والهند ويوغوسلافيا ومصر والجزائر وغيرها ، قد ازدادت سيطرتها على اوضاعها الداخلية بعد تحررها الخارجي وابتدأت تخلق انظمتها الخاصة ... الا ان الحقيقة الجافة التي وردت تبقى مشوهة لانه ليس هنالك الا تحرر واحد داخلي وخارجي معا وفي الوقت نفسه .

اذ هل نجحت الامة الصينية في التحرر السياسي دون ان يبدأ جيش التحرير الصيني بخلق نواة المجتمع الجديد الذي يحمل مقومات وروح المجتمع الاشتراكي المنشود ؟ ألم تقم حركة التحرير الصينية بايجاد مجتمع مصغر في الشمال وتسليحه اقتصاديا واجتماعيا وفكريا حتى استطاعت النصر في النهاية ؟

ولنأت الى امثلة من صميم الوجود القومي العربي .. كيف يجب فهم تجربة الثورة الجزائرية ؟ ألا يناضل جيش التحرير وشعب الجزائر ضد الفرنسي المستعمر وضد الخونة معا ، وفي الوقت نفسه يبني اسس المجتمع العربي المنشود ؟ ألا نرى في المنطقة الجزائرية المحررة صورة صغيرة لذلك المجتمع من حيث نظامه الزراعي ونظام الضرائب والمعاملات ؟

ثم ألا تكون كل المكاسب السياسية التي احرزتها مصر الثائرة من الغاء للملكية ومن اجلاء للانجليز .. ألا تكون فارغة جوفاء دون مضمون ودون سند لو لم تسندها وتدعمها انظمة الاصلاح الزراعي وتأميم شركة القناة والمؤسسات الاجنبية ؟

ورغم ان الاشتراكية والديموقراطية نظامان متكاملان كما يعترف الكتاب فنحن لا ندري ان كان النضال من اجل ديموقراطية الحكم مؤجلا لمرحلة الاشتراكية اذ ان الكتاب قد سمى المرحلة الثانية « مرحلة بناء المضمون

اما ردنا على هذا التقسيم المفتعل لمراحل النضال ، فهو اننا نعاني ازمة وجود ، أي أزمة حياة ، وهذه الحياة المتأزمة تؤيدها الحي انما

هو الانسان العربي الضائع . هذا الانسان المتأزم الحياة ، ازمته شاملة لكل ما في وجوده من مجالات النشاط الانساني ، بحيث ان أي تجاهل او تأجيل لاي بعد من ابعاد حياته ، لا يكون الا شطرا وتشويها لانسانيته ، ولا يكون بالتالي الا افتعالا جائرا في التفهم الواقعي لتوتر الازمة .

وعليه ، فهدف النضال العربي النهائي انما هو خلق بناء المجتمع العربي الامثل الذي هو اصلح تربة لخصب وابداع النفس العربية كي تؤدي رسالتها بالاخاء مع امم العالم من اجل سعادة البشرية . وهكذا فالقيمة الاولى لمجتمع كهذا انما محكها ومقاسها مدى ما توفره لهذا الانسان العربي من ظروف ووسائل الابداع . وانا في هذا المجال لا ادري مطلقا كيف يأتي بعض الكتاب فيفصلون ويحددون فيقولون « هذه هي الوسيلة » و « هذه هي الغاية » .. اذ ان شطر الوسيلة عن الغاية في هذا المجال ، مجال حياة الفرد العربي ، انما يمثل ذهنية ميكانيكية جافة جامدة ، تعالج وجود خلية الحياة ـ الانسان العربي ـ كما تعالج مواد المختبر الفيزيائية . فالانسان العربي الحر لاكبر درجة ممكنة انما هو الغاية دائما ، ولا يمكن ان نجعل هذا الانسان الضائع في مجتمعنا الحالي وسيلة لمجتمع منشود متصور ، ان ليس الارض وجوها ما يقرر نوعية وجود الانسان العربي في المجتمع المنشود بالدرجة الاولى ، انما هو نوعية البشر الذين سيخلقون هذا المجتمع . فاذا تجاهلنا هذا الانسان العربي واعتبرناه وسيلة لمجتمع قادم فلا نكون قد افترقنا عن فلسفة اممية مستعدة ـ كما ظهر واضحا في المؤتمر العشرين للحزب البولشفي عندما شجب الماضي ـ لتضحية جيل بل اجيال من اجل نظام لا يتعدى بحال الحلم .

اذن ، فالهدف والغاية دوما ، انما هما خلق الانسان العربي الحر ، والنضال العربي لهذا المثل يشمل كافة مجالات النشاط الحياتي ، ونحن عندما نحاول تحديد اهداف النضال العربي ورفعها كشعارات اساسية لا يكون ذلك الا للكشف عن مواطن الخلل الاساسية في مجتمعنا واعطاء الحلول التي يتطلبها دائما نضال الاحزاب السياسي . فنحن مثلا عندما نقول ان اهداف الامة العربية في هذه المرحلة التاريخية انما هي الوحدة والحرية والاشتراكية كأدوية للتجزئة والاستعمار والاستثمار ، وعندما نقول ان النضال واحد في سبيل هذه الشعارات ، انما يكون ذلك للتدليل القاطع على وحدة ابعاد الازمة العربية ووحدة النضال الحياتي في سبيل اعادة خلق الوجود العربي . وحتى النضال في سبيل الوحدة والحرية والاشتراكية ! يمكن الا ان يشمل تغيير الواقع العربي في كل مجالات الحياة العربية من عادات وتقاليد وثقافة واسلوب منطق وذهن وتفكير .. فنحن نريد خلق حياة جديدة ، نريد تغيير كل شيء ، هذا ما تجبرنا عليه طبيعة المرحلة العربية .

يجيب مصدرو الكتاب في المقدمة على السؤال .. لماذا فشل النضال في القرن الماضي ؟ « في كثير من الاحيان التي كانت تتوفر فيها الاهداف القومية السليمة ، كان ينقصها بعض مستلزمات النضال العقائدي ، كالتنظيم الدقيق ، والاسلوب العلمي في العمل ، أو عدم تجسيد جميع الافراد لمستلزمات النضال العقائدي تجسيدا ثوريا ، مما يخشى معه ان يتحول النضال تدريجيا الى ترف فكري او نضال سياسي بحت » .

ان هذا النص هو المبرر الذي ارتضاه اصحابه للتنظيم الحزبي الذي يريدونه عن قريب ، هذا التنظيم الذي يتجاهل وجود حركة عربية عقائدية نامية دوما ، والذي ينسى ما في هذا من شطر للتنظيم الحزبي الذي يتبنى نقطة انطلاق عقائدية عربية . وما دمتم في النص السابق قد تحدثتم عن « النضال العقائدي ، والتنظيم الدقيق والاسلوب العلمي، والتجسيد الثوري لمستلزمات النضال .. خوف التحول الى النضال السياسي البحت » .. ألا يأتي كل ما ذكرنا ليؤكد خلو الكتاب من نفس هذه الركائز الاساسية المطلوبة ؟

وبعد ،

فمنذ نما الوعي الاجتماعي الثوري ، اصبحت الحركات السياسية لا تقاس بمحاولة اسكتناه مدى اخلاص الاشخاص ، ولا بالنوايا الحسنة ، وانما بمدى الخير الذي تؤديه هذه الحركات لاوسع جماهير المجتمع انتشارا ـ للعامل والفلاح ـ ... ومن هنا اصبح الحكم على هذه الحركات انما هو الشعب وانما هي التجربة لا غير ، ولا يستطيع انسان ان يحرم جماعة من الحركة التي تريد . ولكن هذا ، لا يمنعنا من الاحتساب والخوف ما دام كل ما ذكرنا في نقدنا للكتاب يثبت عدم تبني اصحابه للشعارات الآتية التي هي مطلب يومي حياتي لاوسع الجماهير العربية انتشارا .. جماهير العمال والفلاحين .. الاحتساب من عزل هذه الحركة عن صخرة النضال الوحيدة ـ الشعب العربي ـ والخوف من تبنيها لمصالح فئات معينة ، واتخاذها طابع السهولة واليسر في النضال كنتيجة لعزلها عن الخلود الوحيد ـ الشعب العربي ـ .

الكويت — فريد ابو عيطة

قضايا الفكر المعاصر

سلسلة كتب تتناول اهم القضايا الفكرية التي تشغل المثقفين اليوم ، مع دراسة وافية لاعلامها وممثليها العالميين

صدر منها

١ ـ سارتر والوجودية

تأليف ر.م. البيريس ترجمة الدكتور سهيل ادريس

٢ ـ كامو والتمرد

تأليف روبير دولوبيه ترجمة الدكتور سهيل ادريس

تطلب من دار العلم للملايين
ودار الآداب ـ بيروت